الفصل الثاني

حروف العربية من حيث المخارج

obeikandl.com

حروف العربية من حيث المخارج

قسم سيبويه مخارج الحروف العربية إلى ستة عشر مخرجاً، وهذه المخارج هي:

١. من أقصى الحلق تنسب له الهمزة، والهاء، والألف.

٢. من أوسط الحلق تنسب له العين، والحاء.

٣. من أدنى الحلق تنسب له الغين، والخاء.

٤. من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى تنسب له القاف.

٥. من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً، وما يليه من الحنك الأعلى تنسب له الكاف.

٦. من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى تنسب له الجيم والشين، والياء.

٧. من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس تنسب له الضاد.

٨. من حافة اللسان إلى الطرف وما فوقهما تنسب له اللام[١]

(١) لم توضح النسخة التي حققها الأستاذ عبد السلام هارون مخرج اللام، وقد اعتمدنا في التعرف إلى مخرجها، على نسخ أخرى، منها النسخة التي أصدرتها مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية. سنة ١٩٦٧م.

obeikandl.com

٩. ومن حافة اللسان، من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا تنسب له النون.

١٠. ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام تنسب له الراء.

١١. مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا تنسب له الطاء، والدال، والتاء.

١٢. مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا تنسب له الزاي، والسين، والصاد.

١٣. مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا تنسب له الظاء، والذال، والثاء.

١٤. من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى تنسب له الفاء.

١٥. مما بين الشفتين تنسب له الباء، والميم، والواو.

١٦. من الخياشيم تنسب له النون الخفيفة.

ويلتقي هذا التقسيم، الذي قدمه سيبويه لمخارج الحروف العربية، مع التقسيم الحديث لها في بعض النواحي، التي لا يمكن الاستهانة بها، ويختلف معه – في الوقت نفسه– في أمور أخرى قد تعود، أو يعود بعضها بالفعل، إلى حدوث تطور صوتي طرأ على نطقنا المعاصر

obeikandl.com

لبعض الأصوات بالقياس إلى نطق أولئك الأجداد لها قبل مئات السنين، إضافة إلى افتقار علمائنا القدامى إلى وسائل البحث العلمي وآلاته المعاصرة التي يعتمد عليها الآن دارس الأصوات، وهو بصدد وصفها وتصنيفها.

ونودُّ أن نشير، في البداية، إلى بعض الجوانب المشتركة، أو شبه المشتركة، بين تصورات ذلك العالم، وتصورات الدرس الحديث لأصوات العربية:

١) الجمع بين بعض الأصوات ونسبتها معاً إلى مخرج معين:

جمع سيبويه بين بعض الأصوات في حزمة واحدة، ونسبها معاً إلى مخرج واحد. ومن الأمثلة على ذلك، جمعه بين أصوات الجيم، والشين، والياء، ونسبتها معاً إلى مخرج من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى، وجمعه بين أصوات الباء والميم والواو، ونسبتها معاً إلى مخرج ما بين الشفتين. ويتفق هذا مع الدرس الصوتي الحديث الذي يصنف مجموعة الأصوات الأولى معاً وينسبها إلى المخرج الغاري، ويصنف مجموعة الأصوات الأخيرة معاً وينسبها إلى المخرج الشفوي.

وقد وُفِّق هذا العالم في الجمع بين أصوات أخرى ونسبتها معاً إلى مخرج واحد. غير أن الحظ لم يحالفه في نسبتها إلى مخارجها التي اصطلح عليها التصنيف الحديث لعلم الأصوات. ومن الأمثلة على ذلك جمعه بين صوتي الهمزة والهاء، ونسبتهما معاً إلى أقصى الحلق وجمعه بين صوتي العين والحاء، ونسبتهما معاً إلى أدنى الحلق، وجمعه أيضاً بين أصوات الطاء والدال والتاء، ونسبتها معاً إلى مخرج خاص بها، ومختلف عن المخرج الذي نسب إليه مجموعة أصوات الزاي والسين والصاد، وإضافة إلى ذلك، فقد جاء تصنيف سيبويه لبعض الأصوات ونسبتها إلى مخرجها مطابقا تماماً لما يقرره الدرس الصوتي الحديث، ومن الأمثلة على ذلك نسبة صوت الفاء إلى مخرج باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا.

٢) صنف سيبويه صوت الهمزة في بداية سلسلة الأصوات العربية من حيث المخرج.

وهو – في هذا- يتفق مع التصنيف الحديث، الذي يعد هذا الصوت أول الأصوات العربية مخرجاً. غير أن الخلاف بين التصنيفين يكمن في تسمية المخرج الذي ينتمي له هذا الصوت، فقد عزا سيبويه الهمزة إلى مخرج أطلق عليه اسم أقصى الحلق، أما الدرس الصوتي الحديث فينسبه إلى الحنجرة.

٣) ويمكننا أن نلحظ دقة وصف هذا العالم وحدسه لمخارج الأصوات العربية.

عندما تحدث عن مخارج اللام والنون والراء، التي وردت في تصنيفه متتابعة مخرجياً، والتي ينسبها التصنيف الصوتي الحديث معاً إلى المخرج اللثوي؛ فلا يوجد فرق – فيما نرى- بين الوصفين أو التصنيفين إلا بالعموم الذي يتسم به الوصف الحديث ، ودقة الوصف الذي حاول سيبويه -ببراعة- اضفاءه على كل صوت من هذه الأصوات الثلاثة.

أما فيما يتعلق بجوانب الخلاف بين تصنيف سيبويه وترتيبه للأصوات العربية، والتصنيف الحديث لها، فيعود بعضها، أو معظمها، إلى خلافات شكلية مردها عدم توحد المصطلحات لدى الطرفين، واحتمال حدوث تطور في نطق بعض هذه الأصوات، فضلاً عن اختلاف الجانبين في وسائل البحث والدرس التي كانا يستعملانها في عملية الوصف والتصنيف:

١. إنَّ أول ما يلفت الانتباه في التوزيع المخرجي، الذي قدمه سيبويه، للأصوات العربية، هو أنَّ هذا العالم قد حذا حذو شيخه وأستاذه الرائد، الخليل بن أحمد، في ترتيب الأصوات ومخارجها ترتيباً تصاعدياً، حيث بدأ -كما فعل أستاذه- بالحلق وانتهى بالشفتين. ويبدو

أن هذا الترتيب، الذي بدأه الخليل، وطبقه –من بعده– تلميذه سيبويه، ظلَّ موضع محاكاة وتقليد لدى جلِّ اللغويين الذين جاءوا فيما بعد.

أما الدرس الصوتي الحديث، فيدأب على ترتيب الأصوات العربية ومخارجها ترتيباً تنازلياً، حيث يبدأ –في العادة– بالشفتين، وينتهي بالحلق فالحنجرة .

٢. ولعل من أبرز نقاط الخلاف، بين التصنيف المخرجي الذي قدمه سيبويه للأصوات العربية، والتصنيف الحديث لها، هو مفهوم الحلق لدى الطرفين؛ فالحلق لدى سيبويه –ولدى أستاذه الخليل من قبلُ، ولدى معظم اللغويين الذين جاءوا من بعدُ – يعد موضع الإخراج الأول (من الداخل) .

وينسب سيبويه – ومعه معظم اللغويين أيضاً[١] – إلى هذا المخرج الأحرف التالية: الهمزة والهاء والألف، والعين والحاء، والغين والخاء. ويبدو أن سيبويه قد أحس بطول هذه المنطقة التي سماها الحلق، فعمد إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، هي: أقصى الحلق، وأوسطه، وأدناه. ثم عزا إلى كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة صوتين اثنين، باستثناء أقصى

(١) لم يصنف الخليل بن أحمد – على سبيل المثال. الهمزة ضمن الأصوات الحلقية، وإنما صنفها، مع الواو والألف والياء، واعتبرها جميعاً أحرفاً هوائية تصدر من الجوف.

الحلق الذي عزا له ثلاثة أصوات هي؛ الهمزة والهاء والألف، ولقد ناقشنا موضوع الألف ونسبتها إلى هذا المخرج في موضع سابق[1]، وبيَّنا رأي العلماء القدامى، ورأينا في هذا الأمر. وعلى هذا فإن المشهور، لدى معظم اللغويين السابقين، هو اعتبار الحروف الحلقية ستة أحرف جمعها قول شاعرهم:

همزة فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء

أما الدرس الصوتي الحديث فإنه يوزع هذه الأصوات الستة على ثلاثة مخارج مختلفة، هي:

أ. الحنجرة – Larynx: وهي عبارة عن حجرة متسعة نوعاً ما، تقع في المنطقة الواقعة بين أسفل التجويف الحلقي، وأعلى القصبة الهوائية. ويبدو لنا أن هذا الموضع، أو المخرج، يناظر ما أطلق عليه سيبويه مصطلح أقصى الحلق. ويتم في هذا المخرج انتاج صوتي الهمزة والهاء.

ب. الحلق–Pharynx: وهو عبارة عن تجويف يقع بين الحنجرة وأقصى الحنك. ويبدو لنا أن هذا الموضع، أو المخرج، يناظر ما أطلق عليه سيبويه مصطلح أوسط الحلق. ويتم في هذا المخرج انتاج

(١) ينظر ص: ٢٩–٣٣ من هذه الدراسة .

obeikandl.com

صوتي العين والحاء.

ت. الطبق، أو ما يسمى بأقصى الحنك أو الحنك اللين: Soft Palate/Velum ويبدو أن هذا الموضع يناظر ما أطلق عليه سيبويه مصطلح أدنى الحلق. ويتم في هذا المخرج انتاج صوتي الغين والخاء، كما ذكر سيبويه، إضافة إلى صوتي الكاف والواو كما يصنفها الدرس الصوتي الحديث للأصوات العربية.

وعلى هذا، فإنّ الحلق، أو المخرج الحلقي، لا يشكل من تلك المنطقة الكبيرة، التي سماها سيبويه "الحلق" سوى موضع محدود يقع بين الحنجرة التي تحده من أسفل، وأقصى الحنك واللهاة التي تحده من أعلى. ولا ينسب إلى هذه المنطقة –كما ذكرنا سابقاً– سوى صوتين اثنين، هما: العين والحاء.

ولعل السبب، أو الأسباب، التي دفعت سيبويه إلى نسبة الأصوات الستة –أو السبعة– إلى هذه المنطقة التي سماها "حلقاً" تعود إلى:

١– عدم معرفته الدقيقة لتلك المنطقة الداخلية من جهاز النطق، وخاصة منطقة الحنجرة، وما تشتمل عليه من مكونات عضلية وغضروفية، وأوتار صوتية تتطلب معرفتها الاستعانة بمعلومات تشريحية، فضلاً عن ضرورة الاستعانة، لهذا الغرض، ببعض الآلات

والأجهزة الحديثة المعينة على ذلك. وقد ذهب إلى هذا المستشرق الألماني "شاده" في أثناء تعليقه على تقسيم سيبويه للمخارج، حيث قال: "وأما الحنجرة وأجزاؤها وعملها فتقتضي ملاحظتها إلى التشريح، وما أظن سيبويه يجترئ عليه، أو إلى بعض الآلات الفنية كمنظار الحنجرة، أو الأشعة المجهولة، ولم يكن مثل هذه الآلات بين يديه، وكفى بذلك عذراً يعتذر به سيبويه، لعدم معرفته بالحنجرة وعملها"[1].

٢- اشتراك هذه الأصوات التي سموها حلقية، دون غيرها من الأصوات العربية، ببعض الخصائص الصوتية والصرفية[2]، الأمر الذي دفع سيبويه -ودفع غيره من اللغويين أيضاً- إلى الجمع بينها ونسبتها معاً إلى مخرج واحد. ولما كان الحلق، أو منطقة الحلق، هي المنطقة الداخلية المعروفة آنذاك، فقد عمد سيبويه إلى تصنيف هذه الأصوات معاً ونسبتها إلى تلك المنطقة.

ويبدو لنا أن هذا العالم كان يدرك، بحسه المرهف، وجود تباين مخرجي دقيق بين هذه الأصوات التي نسبها إلى الحلق؛ فعمد – من أجل ذلك – إلى تقسيم الحلق إلى ثلاث مناطق متمايزة في أقصاه، وأوسطه ،

---

(١) شاده: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا. ص: ٥.

(٢) من ذلك -على سبيل المثال- إيثارها حركة الفتح في عين الفعل الثلاثي ماضياً ومضارعا.

وأدناه. ثم نسب إلى كل منطقة من هذه المناطق مجموعة صوتية بين عناصرها ائتلاف مخرجي يقرره علم الأصوات الحديث.

٣- صنف سيبويه صوت القاف – من حيث المخرج- بعد صوتي الغين والخاء[١]، في حين يرد هذا الصوت –في التصنيف الصوتي الحديث- قبل هذين الصوتين. ويرى سيبويه أن هذا الصوت –أي صوت القاف- يتم انتاجه من منطقة أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى. أما الوصف الصوتي الحديث لهذا الصوت فهو أنه صوت يتم النطق به عندما يرتفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق واللهاة.

وهنا نتساءل: لماذا قدم سيبويه صوتي الغين والخاء –مخرجياً- على صوت القاف؟

وللإجابة عن هذا التساؤل، فإننا نعتقد بأن سيبويه، كان، في سلوكه هذا، منطلقاً من أحد التصورين الآتيين، أو منهما معاً:

أ- إن اشتراك الغين والخاء، مع أصوات الحلق والحنجرة، ببعض الخصائص الصوتية المميزة لها من غيرها من الأصوات العربية، قد دفع هذا العالم إلى ضمّ هذين الصوتين إلى أصوات الحلق والحنجرة، الأمر الذي أدى إلى تقديم الحديث عن هذين الصوتين اللاحقين مخرجياً

(١) جاء صوت القاف –من حيث الترتيب عند سيبويه- بعد صوت الكاف، يُنظر: الكتاب. ٤/ ٤٣١.

obeikandi.com

لصوت القاف. وفي المقابل، فلعل اشتراك القاف مع الكاف، ببعض الخصائص الصوتية، يكون مسئولاً عن تناول هذين الصوتين معاً بوصفهما مشتركين بمخرج عام واحد أو مخرجين متقاربين. وربما يفسر ذلك ويوضحه ما فعله سيبويه نفسه عندما وضع صوت الكاف قبل صوت القاف في أثناء ترتيبه لحروف العربية، وعندما وضع صوت القاف قبل صوت الكاف في أثناء حديثه عن مخارج تلك الحروف.

ب- لعل القاف التي تحدث عنها سيبويه ووصفها، في كتابه، بأنها صوت شديد مجهور، لم تكن كالقاف المعاصرة التي ننطقها اليوم شديدة مهموسة؛ فقد تكون تلك القاف صوتاً شبيهاً، أو قريب الشبه، من صوت الجيم القاهرية، فيكون مخرجها -بناء على ذلك- من أقصى الفم وفي هذا يقول ابن دريد:" فأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف بالكاف فتغلظ جداً "، فيقولون: الـــــگوم، يريدون: القوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف. وهذه لغة معروفة في بني تميم، قال الشاعر(١):

ولا أگول لـگدر الـگوم گـد نضجت ولا أگـول لباب الدار مـگـفول

ومن هذا المنطلق، فإنَّ هذه القاف تكون مشتركة مع الغين والخاء والكاف في المخرج ، أو تكون شديدة القرب المخرجي منها ، غير

(١) ابن دريد: جمهرة اللغة. ١/ ٥

أن سيبويه قد قام – لاعتبارات صوتية معينة – بعزل صوتي الغين والخاء عن صوتي القاف والكاف، وأَلْحَقَ الصوتين الأولين بأَصوات الحلق والحنجرة، في حين أبقى على الصوتين الأخيرين معاً، وناقشهما بوصفهما صوتين متقاربين جداً.

٤- وضع سيبويه أصوات الطاء، والدال، والتاء في مجموعة صوتية مستقلة مخرجياً عن مجموعة أصوات الزاي، والسين، والصاد. وقد نسب أصوات المجموعة الأولى إلى مخرج يقع بين طرف اللسان وأصول الثنايا، ونسب أصوات المجموعة الثانية إلى مخرج يقع بين طرف اللسان وفويق الثنايا.

أما الدرس الصوتي الحديث؛ فيميل – بوجه عام – إلى تصنيف هذه الأصوات الستة، ومعها صوت الضاد[1] ، معاً وينسبها إلى مخرج واحد هو المخرج الأسناني اللثوي. وفي هذا المخرج يتم انتاج الأصوات السبعة السابقة عندما يعتمد طرف اللسان على باطن الثنايا العليا، ومقدمه على اللثة. ولكن سيبويه –فيما يبدو لنا من كلامه– قسم هذا المخرج إلى قسمين:

أولهما– أسناني: وقد نسب إليه أصوات الطاء، والدال، والتاء.

---

(١) سوف نناقش هذا الصوت مخرجاً وصفة في موضع لاحق. يُنظر، ص: ١٥٠ من هذه الدراسة.

obeikandl.com

وثانيهما- لثوي: وقد نسب إليه أصوات الزاي، والسين والصاد. ولعل السبب الذي دفع هذا العالم، إلى هذا السلوك، يكمن في ملاحظته أن هناك بعض الفروق القائمة بين هاتين المجموعتين الصوتيتين؛ فأصوات المجموعة الأولى -وهي الطاء والدال والتاء- يجمعها ملمح الشدة أو الانفجار، في حين يجمع أصوات المجموعة الثانية ملمح الرخاوة أو الاحتكاك. وإضافة إلى ذلك، فإن بين أصوات كل مجموعة من هاتين المجموعتين شبكة من التناظرات والتقابلات، في ملامح الجهر والهمس، والتفخيم والترقيق تؤيد ما ذهب إليه سيبويه من تصنيفهما مستقلتين إحداهما عن الأخرى.

وربما كان سيبويه يحس بوحدة المخرج، أو بشدة قرب المخرج، بين هاتين المجموعتين الصوتيتين، ولكنه، بدافع الدقة العلمية، وبسبب الاعتبارات التي سجلناها في السطور السابقة، فضّل توزيع أصوات هاتين المجموعتين على مخرجين مستقلين. ولعلنا نلتمس الدليل على ذلك في وصفه لمخرج كل مجموعة منهما؛ فقد وحَّد سيبويه وصفه لكلا المخرجين باستثناء قوله في وصف المجموعة الأولى بأنها مما بين طرف اللسان، وأصول الثنايا، وقوله في وصف المجموعة الثانية بأنها مما بين طرف اللسان، وفويق الثنايا. فقوله: " فويق الثنايا " في وصفه لأصوات المجموعة الثانية، وقوله:" أصول الثنايا " في وصفه لأصوات المجموعة

الأولى، يوحيان بدقة هذا العالم واحساسه بالتوحُّد المخرجي، أو التقارب المخرجي الشديد، بين أصوات هاتين المجموعتين.

أما فيما يتعلق بالمخرج الأخير، وهو الخياشيم، الذي نسب له سيبويه النون الخفيفة، فإننا لا نعده مخرجاً أساسياً، ونعد النون، التي تحدث عنها في هذا المخرج، تنوعاً صوتياً للنون التي تحدَّث عنها في المخرج التاسع.

obeikandl.com